صناعة النفس

عبد الله بن سليمان العبدالله (ذو المعالي)

<TD< tr/>

للإنسان قُدْرَةٌ في إظهار نفسه و تكوينها ، و هو في ذلك غنيٌّ عن إظهار غيره له .

و هذه حال كثيرين يعتمدون على غيرهم ، و يرتقون على أكتاف كبرائهم لإظهار أنفسهم .

و هذا فيه ما فيه من هضم النفس ، و هَدْرٍ لما وهبها الله من آليَّات النهوض بها ، و الرقي بها في سماء العلو .

و لذا كانت وظيفة (صناعة النفس) سائدة لدى فئة من الناس لا يُزَاحَمُوْنَ في وظيفتهم ؛ و هذا إنما هو : لقلَّتِهم ، و لعلو همتهم ، و لقوة عزيمتهم .

فَمِنْ شابههم سلك دروبهم . و مَنْ لا فلا .

و هذه أسطرٌ كاشف فيها معاني (صناعة النفس) من خلال مباني الأحرف .

و مؤصِّلاً وظيفة (صناعة النفس) موافِقَاً أصول الشريعة ، مراعياً أُسُسَ التربية .

معنى (صناعة النفس) :

قـد يتبادر إلى الذهن معنى لـ (صناعة النفس) غيرُ مُرادٍ لي ؛ و دفعـاً لتلك المبادرة أُبيِّنُ المعنى من (صناعة النفس) و هو :

سعيُ الإنسان _ الجادّ _ نحو إظهار نفسه ، و الكشف عن مكنوناتها و مهاراتها التي تؤدي بها نحو عالم الإبداع . مع اعتماده على ذاته وما كان خافياً فيها من

قُدَرٍ .

و هذا المعنى هو من بنيَّات الفكر ، و بَوْحِ الخاطر .

قواعدُ(صناعة النفس) :

لـ (صناعة النفس) قواعدُ و أصولُ بها تُتْقَنُ و تُحْكَمُ (صناعة النفس) ، و بدونها ، و حال تخلُّفِها يكون الخلل ، و يُخَيِّمُ الفشل .

و ههنا أمورٌ أربعة هنَّ أصولٌ لـ (صناعة النفس) :

الأول : معرفة قُدُرَاتُ النفس :

إن الله _ تعالى _ منَّعَ الخلق بقُدَرٍ و مواهبَ ؛ و هذه المواهب و القُدَرُ متفاوتةٌ بين الناس ، و هم فيها متباينون .

فإذا عرف الإنسان قُدُرَاتُ نفسِه أحسن استعمالها ، و انشغل بها عن غيرها .

و معرفة قُدَرُ النفس مُرْتَكِزَةٌ على رَكِزَتَيْن :

الأولى : عدم رَفْعِ النفس فوق قدْرِها .

حيث ترى _ و هو كثير _ مَنْ يُخادع نفسه و يُلْبِسُها لباس الزور فيُنزلها منازل كبيرةً عليها ، ليست هي من أهلها و لا قَرُبَتْ من أحوالهم .

الثانية : عدم إهانتها و إنزالها عن قدرها .

و هذه كسابقتها في الكثرة و الانتشار .

و أعني بقُدَرِ النفس : ما تعرف النفس أنها ميَّالَةٌ إليه ، و تتيقَّنُ أنها تُنْتِجُ فيه أكثر .

الثاني : حُسْنُ إدارة النفس :

إدارة النفس تعني قُدْرَةُ الفرد على توجيه مشاعره و أفكاره و إمكانياته نحو ما يريد تحقيقه ، و ما يصبو إلى تحصيله ( ).

فَحِيْن يستطيع الإنسان أن يوجِّهَ خواطره و مشاعره نحو ما يسعى إليه في حياته يكون بدءُ (صناعة النفس) .

و إدارة النفس فنٌّ له أصوله و قواعده و مهاراته ، فليس هو أمرٌ بالهيِّن ، و لا بالشأن السَّهل .

الثالث : تزكيةُ النفس :

تزكية النفس هي : تنميتها ، و تطهيرها .

فتنميتها تكون بـ : الطاعات ، و الفضائل .

و تطهيرها يكون بـ : التخلِّي من الآفات ؛ المعاصي ، سفائل الأخلاق .

هذان أُسَّان في تربية النفس و تطهيرها .

الرابع : التدرُّج :

النفس توَّاقةٌ نحو الدَّعَةِ ، و ساعيةٌ إلى الخمول و السُّكون ، فإذا أراد صاحبها أن يُبْدِعَ في (صنلعة النفس) فلا بدَّ له من نقلها من مواطن الركود و الدعة إلى مشارف العلو و الرفعة .

و هذا يحتاج إلى أن يتدرَّج بها صاحبها من الدُّوْنِ إلى العلو ؛ شيئاً فشيئاً قليلاً قليلاً.

و سرُّ ذلك : أن في التدرُّج تنقُّلٌ مُمَهَّدٌ يستدعي تقبُّلَ النفس لتلك الصناعة .

و العكس ذو آفة يعرفها من أدرك حقيقة ذاك السر .

الخامس : الحكمة :

إن (صناعة النفس) تقتضي التعامل بالحكمة مع النفس ؛ فلا تُجْهَد ، و لا

تُطْلَق لها الأزِمَّة .

فيراعيها في موطنين :

الأول : موطن الإقبال نحو المعالي ؛ فيغتنم تلك الفرصة لتربيتها ، و تنميتها .

الثاني : موطن الإحجام عن الفضائل فيستعمل معها سياسة القيادة من

جهتين :

الأولى : الترغيب ؛ فيرغب نفسه بفضائل الأفعال ، و مقامات الكمال .

الثانية : الترهيب ؛ فيرهب نفسه بعواقب الدُّنُوِّ ، و يُبَيِّنُ لها مساويء الأعقاب .

طرقُ(صناعة النفس) :

لـ (صناعة النفس) طريقان مهمان :

الأول : طريق (الذات) :

و أعني به : أن يكون الإنسان هو الصانع لنفسه ؛ و ذلك من خلال القواعد

الخمس السابقة .

الثاني : طريق الغير :

و أعني به : أن تكون (صناعة النفس) للإنسان من خلال من هو خارج عنه _

أي : عن نفسه _ من : صاحب ، أو عالم ، أو أبٍ ، ... .

مجالات(صناعة النفس) :
المجالات كثيرة و متعدِّدَةٌ ، و لكن ما يهمُ هنا هو ما يتعلَّق بالأمور المتعلِّقة بالإسلام ؛ و هما مجالان :
الأول : مجال العلم :
فإن أغلب الناس _ الصَّالحين _ ممن أعملَ نفسَه في العلم : طلباً ، و تعليماً ، و تأليفاً ... .
و هذه مَحْمَدَةٌ و مَنْقَبَةٌ يُفرَح بها .
لكن الأمر المُؤْسِف أن يكون من يشتغل بالعلم دائمَ الصعود و الظهور على أكتاف أشياخه ، ملازماً لتقليدهم ، حَذِرَاً من إبداء أي رأي له خَشْيَةَ عدم المُوَافَقَة .

و هذه سلبية لا إيجابية .
إذ الواجب على الإنسان أن يكون مُسْتَقِلاًّ بنفسه ، مُعْتَمِداً عليها .
و هذا هو شأن كثير من العلماء ما أظهرهم إلا هم ، سعوا جادِّيْن نحو (صناعة النفس) فأبدعوا و أنتجوا ، في حين أن غيرهم ممن سيطر عليه الخوف ما بَرِحَ مكانه .
و لا أعني بكلامي هذا إسقاط ما للعلماء من مكانة و تأثير في نفس الإنسان ، و إنما أُريدُ أن يكون الإنسان ذا رأي مُعْتَبِراً لنفسه قَدْراً و وزْناً ، و يَنْفَرِدُ بالسعي في تَحْصِيْلِ العلم بعد أخذ مفاتحه و أصوله على مشايخه .

الثاني : مجال الدعوة :
و هذا أكثر و أشهر من سابقه .
و (صناعة النفس) فيه تكون بأن يَعْتَمِدَ الإنسان على ذاته في تبليغ الدعوة ، و نشر الدين في أوساط الناس .
و كذلك أن يسعى لإيجاد طرائق مُتَعَدِّدَةٍ لتبليغ الدين ، و نشر الدعوة في أوسع نطاق .